###

### الإمام الأوزاعي ومنهجية التحضر الإسلامي مع الآخر .. السفارة الإسلامية أنموذجا

**د. مسفر بن علي القحطاني**

**المطلب الأول : الإمام الأوزاعي والدور الحضاري في العلاقة مع الآخر**

**المطلب الثاني : السفارة الإسلامية وبناء الجسور الحضارية مع الآخر**

**المطلب الثالث : العلاقة المعاصرة مع الآخر بين التصادم والتعارف .**

**تاريخ السفارة في الإسلام بدأ مع بداية الدعوة النبوية ، وما رافقها من حاجة التواصل مع القبائل أو الشعوب أو الدول المحيطة بالدولة المدنية التي أنشأها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، ومع أن للرسل والسفراء قديما حصانة من الاعتداءات على أشخاصهم و رسالاتهم ؛فقد حافظ النبي صلى الله عليه وسلم على هذا التشريع الدولي بالرغم من الخروقات العديدة التي مارسها عدد من الحكّام في وقته ؛ مثل ما فعل ملك الفرس خسرو حينما قطّع الخطاب الذي أرسله إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وداسه بأقدامه ، وكذا فعل أمير الغساسنة مع رسول النبي صلى الله عليه وسلم الموفد إليه . ([[1]](#footnote-1)).**

**وفي مقابل هذه المعاملة الوحشية والسلوك المشين أكرم النبي صلى الله عليه وسلم مبعوث المقوقس عظيم القبط وقبل هداياه، وأكرم رسول هرقل. وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في بعض الرسل فدخلوا في الإسلام لما يرونه من حُسن المعاملة وكرم الوفادة ([[2]](#footnote-2)).**

**فقد روي عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " بعثتني قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أُلقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أني لا أخيس بالعهد أي لا أنقض العهد، ولا أحبس البرود أي الرسل، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع " ([[3]](#footnote-3)). قال الإمام الشوكاني: معنى هذا الحديث دليل على أنه يجب الوفاء بالعهد للكفار كما يجب للمسلمين، لأن الرسالة تقتضي جواباً يصل على يد الرسل فكان ذلك بمنزلة عقد العهد، وحتى لا يؤول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حبس الرسول أو أن إسلام رسول قريش كان خوفاً على حياته ([[4]](#footnote-4)).**

**وقد قرر الإمام السرخسي هذه القاعدة الدولية في قوله: " الرسل والمبعوثين لم تزل آمنة في الجاهلية والإسلام وهذا لأن أمر القتال والصلح لا يتم إلا بالرسل فلا بد من أمان الرسل لتوصل إلى ما هو المقصود " ([[5]](#footnote-5)). فتأمين الرسل ثابت في الشريعة الإسلامية ثبوتاً معلوماً.**

**هذا في مجال أمن السفراء والرسل ، أما في مجال نوعية اختيار السفراء فكان دقيقا وملحوظا فيه طبيعة المقابل ومدى تأثره النفسي بشخصية السفير وانعكاس ذلك على رأيه بصاحب الرسالة وأهدافه ، وقد ظهرت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في تطبيق هذا المفهوم من خلال صور عديدة ، منها؛ تعامله مع سفراء قريش في صلح الحديبية وتعاملهم مع سفيره عثمان بن عفان وفهمهم لمراد النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح ، وإرساله دحية الكلبي إلى قيصر كمبعوث عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد اختاره عليه الصلاة والسلام لجماله الشديد وحسن بيانه ، ولا شك أن هذا الاختيار له دلالاته التأثيرية على المقابل من الملوك والعظماء .**

**وقد سار على هذا النهج الجليل جملة من الملوك والخلفاء ، فقد اختار الخليفة عبدالملك بن مروان القاضي عامر بن شرحبيل الشعبي رسولا إلى ملك الروم ، وكان أية في الفهم والذكاء والعلم ، حتى حسد ملك الروم العرب عليه وحاول إغراء عبد الملك بقتله . كما اختار عضد الدولة القاضي أبو بكر الباقلاني رسولا إلى ملك الروم ، وكان من كبار علماء الكلام والفقه والأصول ، وقد استطاع في محادثاته مع الملك أن يفحمه في جدالهم حول عيسى ومريم . واختار الفاطميون القاضي محمد بن سلامة القضاعي سفيرا إلى ملك البيزنطية . وأرسل الخليفة وزيره هشام بن الهذيل إلى ملك الروم . فالسفير في التأريخ الإسلامي صورة عاكسة لحال الأمة وقوتها ومقدار ما تملكه من معارف وعلوم ، لا تظهر إلا في شخص السفير ومدى تمكّنه العلمي وقدراته الذاتية في الردّ وسرعة الجواب وحسن المنطق .**

**والسفارات بين الدول في العصر الحديث لا تختلف عما سبق تأسيسه من قبل ، فالبعثات الدبلوماسية هي وسائط المعرفة وأبواب السلم أو الحرب ، وهم مرآة بلادهم والصورة المنقولة عن حضاراتهم ، والمجتمعات دائما تتفحص وتقرأ وضع السفارات كمدخل للأوطان التي يرغبون التعرف عليها . وفي عصر العولمة والتواصل والتداخل الثقافي ؛ زادت مهام السفير عما سبق وتعاظم دوره في المجتمع الذي يُبعث إليه ، فهو الناطق السياسي والوعاء الثقافي والرسول المجتمعي حتى لو كان لحكومته أغراض أخرى غير تلك المقاصد في عمله . وبنظرة واقعية على الدور الذي تلعبه بعض سفارات الدول العربية والإسلامية في المجتمعات غير المسلمة ؛يظهر للعيان صورة سلبية من الانكفاء وعدم التأثير سوى تلك المناسبات السنوية التي تتطلبها الأعراف الدبلوماسية ، كالأيام الوطنية وتوديع السفراء واستقبال الوزراء وتوصيل الرسائل وحضور الأفراح والمآتم ، والقليل الذي يتجاوز دوره نحو التواصل مع الإعلام وتغير الصورة النمطية عن بلاده ،أو التأثير في النخب المثقفة والسياسية وتحويلهم في صف الدفاع أو الحلفاء مع قضايانا العربية والإسلامية .**

**وبالتالي تصبح شخصية السفير أكبر من ممارس للعمل الإداري أو الأمني إلى شخصية تستقطب وتؤثر وتصنع فكرا وتحاور بمهارات الدبلوماسي المثقف .**

**وكم يتعجب الزائر لكثير من دول العالم خصوصا الدول السياحية منها أن يجد كتب التعريف والإرشاد السياحي قد كُتبت بأشهر لغات العالم باستثناء العربية ؛مع أن أكثر زوارها والمترددين عليها هم من العرب ، في حين نجد اللغة العبرية قد اتخذت موقعا متميزا بين اللغات الحية وهي التي لا ينطق بها سوى بضعة ملايين في العالم كله .**

**ولهذا أجد أن من الضروري أن تقوم السفارات العربية خصوصا في الدول الغربية بالدعوة والتعريف باللغة العربية وفنونها الأدبية ، وبناء جسور حضارية للتواصل مع ثقافاتنا العربية والإسلامية ، ولا أظن أننا نستطيع العبور نحو هذه الجسور إلا من خلال بوابة السفارات المفتوحة للعلوم والمعارف والحضارات المتنوعة .**

**العلاقة مع الأخر الديني والفكري .. أسئلة من جديد؟**

**أتساءل أحيانا عن جدوى تصحيح صورتنا الدينية عند الأديان الأخرى خصوصا في وقتنا المعاصر ؛ الذي بات أكثر المنتمين للديانات الأخرى إما ملاحدة أو لادينيين وهؤلاء لا ينفعهم صحة دينك أو بطلانه بقدر ما يؤثر فيهم وجود قدر من المصالح المشتركة وحاجتهم لك وفق معايير لا تنطلق من المرجعية الدينية ,أو قد يكون المقابل من أصحاب الديانات متدين لا يمكن أن يغير معتقده من خلال خطاب إعلامي أو مناورات سياسية قد لا تؤثر في موقفه المسبق منك, وأحيانا ونحن نجتهد في إبراز الصورة الحسنة عن الإسلام للغربيين نحاول بعنف التقريب بين الأديان وجمعها ولم شملها في بيانات مشتركة لا تخلو من المجاملات السياسية , وأعيد تساؤلي مرة أخرى ؛ هل الإسلام في وقت سلمه مع أصحاب تلك الديانات مارس التقريب الديني أم التعريف بالدين وربط العلاقات بالمصالح التي تحقق قدر كبير من المنافع المادية للطرفين ؟ ومن ثمَّ تأطير العلاقة بين متكافئين و ليس فيها متهم يبحث عن أدلة البراءة من خصمه المقابل .**

**كذلك تقفز للذهن تساؤلات أخرى عن العلاقة التي بدأت تسمى في وقتنا الحاضر (بنحن والأخر) وكل جواب على تحديد هذه العلاقة لن يسلم من النقد الجارح من الأخر الداخلي و أظن أن المنطق العقلي يقتضي كجواب على تلاقي الأنا والأخر أن هذا لا يمكن أن يجتمع على شيء واحد في نمط متحد كاستحالة الجمع بين الليل والنهار والسواد والبياض, ولكن السؤال الصحيح الذي ينبغي أن يُطرح في علاقتنا مع الآخر هو : هل يمكن أن يجتمع المختلفان ؟ .. والمنطق هنا يقتضي أيضاً بامكانيته عقلا وجوازه شرعا. فقد نختلف مع غيرنا إلى حد التباين لكن تبقى هناك الكثير من العوامل المشتركة تجمع بيننا قد تحددها الظروف المحيطة والمصالح المتبادلة وليست الشواهد النبوية ببعيدة عنا بل هي حاضرة وماثلة في المعاهدة مع اليهود أو الصلح مع المشركين أو أحكام أهل الذمة والمعاهدين مما يقرر و يؤصل منهج التعامل مع الأخر والتعايش معه .**

**وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر كمفصل تاريخي للعلاقة مع الغرب خرجت من بيننا أصوات و أطروحات عدة تدعو للتعايش والقبول بالآخر, بل وتذويب الفروق العقدية والتاريخية بيننا , بينما قابل الأخر ذلك بثقافة الصدام بين الحضارات ونهاية العالم وتدنيس المقدسات بل وكتب جمع من المثقفين الامريكان بيانا للعالم أسموه " على أي أساس نقاتل " تبريرا لكل صور الاعتداء والقمع والتدخل السافر في شؤون الآخرين , كما جاء في الطرف المقابل من جعل لغة القتل والتدمير وسيلة التفاهم مع الآخر .. لذا هناك ملامح لابد أن تظهر في دعواتنا للحوار والتعايش مع الآخر يمكن أن نجمل الرأيّ فيها في النقاط التالية :**

1. **لقد تم التعامل مع الآخر على أنه شكل واحد ونمط ثابت ذابت كل الفروقات المتناقضة في شخصه الجديد واختفت الندوب من وجهه المقنع بينما ظهرت ذواتنا في إعلامه وثقافته بأشكال غريبة و تهم إرهابية وتغليب للقلة الناشزة على الكثرة الصامتة أو المعتدلة التي تمثل الطيف الواسع الحقيقي لمبادئنا الدينية وثقافتنا الفكرية . فلا يمكن والأمر كذلك أن يتقبل كل طرف الأخر ما لم تصحح الصورة النمطية التي صنعها الإعلام عن المقابل . فالحوار والتعايش هو نبض المجتمعات , والأفراد هم الميدان الحقيقي لنجاح أو فشل هذا المناخ , وأصوات الصقور والغربان لا تعلو إلا في ساحات المعارك والاقتتال بينما معركتنا الراهنة هي معركة الوعي الديني والتنمية المستدامة والحضارة الرائدة ؟؟**
2. **يروج لدى بعض المثقفين الغرب أن الدين الإسلامي يقصي الآخر ويحارب الأديان والثقافات الأخرى و هذا الاتهام قد تكلم في ردّه و إبطاله الكثير من علمائنا المسلمين والشواهد الشرعية والتاريخية مازالت بين ايدينا لم يتقادمها الدهر بل تجددت روحها مع كل أزماتنا المختلفة, لكن الأمر يبدو غريبا عندما نجد تلك التهم هي الأقرب التصاقا للفلسفة والفكر الغربي الأوروبي ابتداءً من فلاسفة اليونان كأرسطو القائد الروحي لفتوح الأسكندر المقدوني بكل فضاعاتها , إلى قوانيين الرومان التعسفية التي قزّمت وعبّدت كل الشعوب الأخرى , وصولا إلى عصر التنوير الأوربي المنتج للفكر الغربي الحديث , فاشهر مفكري تلك المرحلة كديكارت كان يرى مفارقة بين الأنا الفردية الواعية وبين الغير لأن عملية الشك المعرفي التي يصل بها إلى الحقيقة لا تتم إلا من خلال إقصاء الغير والتجرد من كل الموروثات الاستدلالية بينما, هيجل لا يرى اعترافا بالذات إلا من خلال اعتراف الأخر بها . واعتراف أحد الطرفين بالآخر لابد أن ينتزع. هكذا تدخل الأنا في صراع حتى الموت مع الغير، وتستمر العلاقة بينهما في إطار جدلية العبد والسيد. هكذا يكون وجود الغير بالنسبة إلى الذات وجودا ضروريا عند هيجل .فهذان النموذجان من التطرف في النظر إلى الآخر لا ينسحب على كل المفكرين المؤثرين في الغرب بل هناك الكثير من العقلاء المعتدلين المنصفين سواء كانوا أفرادا أو مؤسسات وهم من ينبغي التحاور ومد الجسور واستمرار التواصل معهم , وعليهم ينبغي التركيز والاهتمام بدلا من صرف ذلك نحو المؤسسات التجارية أو الإعلام المؤدلج أو الحكومات العسكرية التي لا تنظر إلا مصلحتها وامتداد سيطرتها على الأخر باسم الحوار والتعايش.**
3. **غُلّب مصطلح الأخر في القرن الماضي على الغرب الأمريكي والأوربي والمعطيات الديمغرافية والتنموية تشير أن المستقبل للقوى الشرقية كالهند والصين واليابان بالإضافة إلى دول الجنوب الأفريقي أو اللاتيني ؛ فهي لا تحمل إرثا معاديا للإسلام ومؤشرات نموها وموقعها وأثرها على منطقتنا كبير . واعتقد أن المردود الايجابي من التحاور معهم سيفتح لنا بعدا قيميا في علاقتنا وخيارا استراتيجيا يعادل موازين القوى في العالم . وهذا ما نحتاجه من مراكزنا البحثية أن تكرّس جهدها في دراسة تلك المجتمعات وفتح الأفق للتبادل المعرفي ونشر قيمنا الإسلامية فيها .**

**فإذا أردنا مستقبل حوار ناجح مع الآخر فهو لمن يمد يده ليسلم ويصافح وليس لمن يمدها ليخادع بالتسامح .**

### ذكر صاحب كتاب »الأموال« أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله، وكذلك صاحب »فتوح البلدان« البلاذري وغيرهما من المؤرخين، ما أقدم عليه نفر من أهل الذمة –النصارى- في جبل لبنا أيام العباسيين من نكث للعهود وحمل للسلاح وإعلان للفتنة والتمرد، وكيف قضى على فتنتهم الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس،وكيف أقر من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم، ثم كيف شرّد أهل القرى وأجلاهم عن قراهم رغم عدم اشتراكهم جميعاً في هذه الفتنة.. ويذكرون كيف أن إمام أهل الشام، الأوزاعي رحمه الله، لم يرضَ بما حلّ بهم، ولم يسكت عن هذا الظلم، فما كان منه إلا أن أرسل رسالة إلى الوالي يقول فيها: »... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلتَ بعضهم، ورددتَ باقيهم إلى قراهم ما قد علمتَ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرَجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى: (ألا تزرَ وازرة وزرَ أخرى)، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به.. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال: »من ظلم معاهداً أو كلَّفه فوقَ طاقته فأنا حجيجه« (أي: خصمه). وأصرّ على الوالي أن يبادر برفع هذا الظلم، وإزالة الحيف عن كاهل هؤلاء المظلومين مبيناً له ضرورة التزام مبادئ الإسلام مهما كانت الظروف.. ولقد استجاب الوالي وفعل ما طلبه الأوزاعي.. هذا على الرغم من أن الذين قاموا بالفتنة من هؤلاء النصارى نكثوا العهد، وكانوا على صلة بالبيزنطيين، يعملون لحسابهم، إضافة إلى ارتكابهم عمليات النهب والقتل وقطع الطريق وترويع الآمنين. يقول فيليب حتي اللبناني المتأمرك في كتابه (تاريخ سورية 2/165): ».. لجأت جماعة من نصارى الجبل إلى السلاح تفادياً لمصادرات جديدة تنزل بهم، منتهزين فرصة وجود الأسطول البيزنطي في مياه طرابلس، وانقضوا من قاعدتهم وانتهبوا عدداً من قرى البقاع، وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية، بلغ من جرأته وتهوره أن أقام نفسه ملكاً، لكن العصابة اللبنانية قيدت بعد حين إلى كمين قرب بعلبك، نصبته لهم فرقة فرسان عباسية وفتكت بهم..« ولقد أوردتُ في هذا الجانب رواية فيليب حتي لأنه غير متهم بمعاداة هؤلاء بل بموالاتهم وحبهم والحدب عليهم.. ومع ذلك لم يقبل الأوزاعي، رحمه الله، ما لجأ إليه الوالي لكسر شوكتهم، احتياطاً وتحسباً لأمر قد يحدث مستقبلاً، فشردهم من القرى في الجبل وأسكتهم غيرها... وأصر عليه بضرورة التزام حكم الله عز وجل وإنفاذ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. »وقد بلغنا أن حكم الله عز وجل أن يؤخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يؤخذ الخاصة بعمل العامة، ثم يبعثهم الله على أعمالهم، فأحق الوصايا أن تحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم«.

### حدثنا عبد الرحمنحدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قال :حدثني سالم بن المنذر قال :لما سمعت الصيحة بوفاة الأوزاعي خرجت وأول من رأيت نصرانياً قد ذر على رأسه الرماد فلم يزل المسلمون من أهل بيروت يعرفون ذلك له .وخرجت في جنازته أربع أمم ليس منها واحدة مع صاحبتها .وخرجنا يحمله المسلمون وخرجت اليهود في ناحية والنصارى في ناحية والقبط في ناحيةا لجرح والتعديل ج:1 ص:202 للمؤلف عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي سنة النشر 1271هـ

#### دور القوانين الدولية والشرائع السماوية

#### في حماية المدنيين في زمن الحرب

**بقلم : اسماعيل التلاوي**

#### مقدمة

**لقد اختلف الفقهاء والعلماء من واحد إلى آخر في تسمية القانون الدولي ، فمنهم من سماه بالقانون الدولي ، ومنهم من أطلق عليه قانون الأمم أو قانون البشر أو الشعوب . ولكن أيا كانت التسمية ، إلا أن معظم الفقهاء اجمعوا على تعريفه، بأنه مجموعة من القواعد والأسس والأحكام القانونية، التي تحدد حقوق الدول وغيرها من الهيئات الدولية ، وواجباتها وحقوقها ، وتنظم العلاقة القائمة فيما بينها وقت الحرب والسلم ، كما جاء في الاتفاقات والمعاهدات الدولية الموقعة بين الدول ، ومواثيق الأمم المتحدة ، وغيرها من المنظمات الدولية الأخرى. كما يعني أيضا تنظيم القواعد والأسس والقوانين الخاصة بالحقوق والحريات الأساسية للأفراد والجماعات ،ومن أجل ذلك سماه بعض الفقهاء بقانون البشر .**

**وقد جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة عام 1948 دليلاً واضحا على المكانة المهمة التي يتبوأها الإنسان في الأحكام الوضعية للقانون الدولي. والقانون الدولي كما اتفق على تسميته مؤخرا ليس وليد الحضارة الأوروبية كما يدعى بعض الكتاب الغربيين . فالحضارات الشرقية ، ولا سيما الحضارة الإسلامية، لها تأثير كبير في تطور القانون الدولي حيث أضافت له الكثير من القواعد والأحكام. وبنظرة فاحصة للمادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية بشأن مصادر القانون الدولي، نجد ان هذه المصادر ترتكز أساسا على المعاهدات والأخلاقيات المعمول بها في الأمم المتحضرة . ولا سيما الحضارة الإسلامية .**

|  |
| --- |
| الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الإنساني  |

**إن ظهور القانون الدولي الإنساني ليس جديدا من حيث المضمون ، فولادة قواعده قديمة ، وهي اقدم من البلاغ الأمريكي الشهير ، وفكرة الصليب الأحمر الدولي ، وظهور اتفاقات جنيف الخاصة بجرحى الحرب في القرن التاسع عشر .**

**ولو عدنا إلى الفكرة الإسلامية لتبين لنا أن الشريعة الإسلامية استطاعت منذ اكثر من أربعة عشر قرنا ، وفي زمن اتسم بالفوضى والقهر والاستعباد ، إرساء قواعد نظام سام ومبتكر يقوم على مبادئ الأخلاق والفضيلة والإنسانية. فقد عالجت الشريعة الإسلامية السلوك وقت الحرب من حيث معاملة الجرحى والقتلى والأسرى والمدنيين والمنشآت المدنية والدينية . فالدين الإسلامي الحنيف لا يقتصر على تأدية العبادات والعقائد الدينية فحسب ، بل هو نظام أخلاقي واجتماعي وقانوني . والشريعة الإسلامية شريعة أصيلة قائمة بذاتها، غير مقتبسة، ولا منقولة عن أي نموذج أجنبي ، لها أصولها الخاصة وتاريخها المجيد ، وهي مستقلة تمام الاستقلال عن القانون الروماني ، وهذا ما أقرته المؤتمرات الدولية للقانون الدولي المقارن ، ولا سيما مؤتمر لاهاي لعام 1937 ، وأثبته مندوبوا الدول العربية في مذكراتهم المقدمة عام 1939 إلى عصبة الأمم ، وإلى مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة عام 1945. وفي هذه المؤتمرات تأكد أن الشريعة الإسلامية شريعة قائمة بذاتها ، وأنها تعد مع الحضارة الإسلامية من الأنماط الكبرى والنظم القانونية الرئيسية في العالم ، بالمعنى المقصود في المادة التاسعة من نظام محكمة العدل الدولية .**

**ويعتبر الإمام عبد الرحمن الأوزاعي والإمام محمد بن الحسن الشيباني رائدين في وضع أسس القانون الدولي ، ليس عند العرب والمسلمين فحسب ، بل في العالم اجمع .**

**ففي مجال أحكام الحرب والسلم، كان الأوزاعي ذو فتاوى موضوعية ودقيقة لنزعته الإنسانية، التي تعتبر البشر جميعاً عائلة واحدة، تعيش أو ينبغي أن تعيش في ظل العدالة والمساواة . فقد حرم التعرض للفلاحين والرعاة والرهبان والعجزة وأصحاب الصوامع في وقت الحرب ، إلا إذا اشتركوا فعلا في القتال ، كما حرم التعرض للصغار والنساء حتى ولو تمترسوا بهم الأعداء ، بل انه منع التعرض لأي موقع قد يكون فيه بعض هؤلاء . كما قضى بعدم جواز تخريب شيء من أموال العدو وحيواناته وأشجاره ، وكان يستند بذلك إلى تعليمات خلفاء المسلمين إلى قادة الجيوش الإسلامية، وبخاصة بيان خليفة المسلمين أبو بكر الصديق الذي وجهه إلى يزيد بن معاوية، عندما كان في طريقه إلى بلاد الشام، وأوصاه فيه بعدم قتل الأفراد المدنيين العزل غير المحاربين، ولا سيما الصغار والنساء والشيوخ، وبعدم قطع الأشجار المثمرة أو حرقها، ولا يخربوا موضعا عامرا ، وأن لا يعقروا شاة أو بعيرا إلا لمأكله ، ولا يحرقوا نخلة . وقد خلف الفقيه محمد بن الشيباني كتباً كثيرة في الفقه والأصول ومسلك الدولة الإسلامية في حالة الحرب والسلم والتجارة ، وغيرها من المواضيع التي تعتبر من صلب القانون الدولي . وللتدليل على أهمية وفضل وتأثير الفقهاء المسلمين والشريعة الإسلامية في مجال القانون الدولي ، فقد أسس بعض الفقهاء والمهتمين جمعية الشيباني للقانون في ألمانيا عام 1955. كما احتفلت جامعة باريس عام 1970 بذكرى مرور ألف ومائتي سنة على وفاته . وقد تأثر كبار الفقهاء الدوليين في الغرب بما وصل إليهم من أفكار ونظريات واتجاهات عربية وإسلامية في القانون . وكان العلامة الهولندي غروسيوس GROTIUS قد اطلع على ما كتبه الشيباني أثناء نفيه إلى الأستانة عندما وضع كتابه "قانون الحرب والسلم" ، وتأثر بما كتب ، لدرجة أن المفكر بورغشتال J . H .VON PURGSTALL وصف الشيباني بأنه غروسيوس المسلمين.**

ولو نظرنا لهذه المبادئ والقواعد الإسلامية ، وقمنا بمقارنتها على سبيل المثال مع ما ورد في الديانة اليهودية ، لوجدنا أن الشريعة اليهودية تآمر رجالها بإبادة الخصوم ، كما ورد في " الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج " . وقد استعمل اليهود الخديعة مع سكان المدينة المحاصرة ودعوتهم للصلح ، فإن استجابوا أو استسلموا تم استعبادهم . وإن وقعت مدينة في أيدي اليهود ، فعليهم أن يضربوا جميع ذكورها بحد السيف ، وان لا يبقوا من سكانها أحدا ، كما ورد في " الإصحاح العشرين من سفر التثنية " وهذا ما يؤكده ما حدث لسكان العديد من القرى الفلسطينية من مذابح ومجازر وتنكيل ، وبخاصة مجازر دير ياسين ، وكفر قاسم ، وقبية ، وخان يونس ، وغيرها العشرات من المذابح التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني ، كان أبشعها نفي وطرد واقتلاع اكثر من مائتي ألف فلسطيني من ديارهم ووطنهم عام 1948.

**في‮ ‬هذا الإطار العام،‮ ‬سأتحدث بتركيز واختصار،‮ ‬عن الدبلوماسية الإسلامية من خلال مسيرة العمل الإسلامي‮ ‬المشترك،‮ ‬باعتبار أنها المجالُ‮ ‬الحيويُّ‮ ‬للدبلوماسية في‮ ‬المحيط الإسلامي‮ ‬وفي‮ ‬الساحة الدولية‮. ‬ثم انتقل بعد ذلك،‮ ‬إلى استعراض المراحل التي‮ ‬قطعها التأصيل القانوني‮ ‬للدبلوماسية الدوليـة**

**في‮ ‬إطار القوانين التي‮ ‬اجتمع حولها المجتمع الدولي،‮ ‬وذلك من أجل إبراز العلاقة بين المفهومين الإسلامي‮ ‬والدولي‮ ‬للدبلوماسية،‮ ‬قبل أن أخلص إلى الحديث عن اهتمامات العمل الإسلامي‮ ‬المشترك بتعزيز الحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات،‮ ‬وبالعمل مع المجتمع الدولي،‮ ‬من أجل استتباب الأمن والسلم في‮ ‬ربوع العالم‮.‬**

**أودّ‮ ‬أن‮ ‬أشير في‮ ‬البداية،‮ ‬إلى مسألة تاريخية مهمة،‮ ‬أرى من المناسب جداً‮ ‬الإشارة إليها،‮ ‬وهي‮ ‬السبق الذي‮ ‬يسجله التاريخ للمسلمين في‮ ‬تأصيل قواعد العلاقات الدولية،‮ ‬بالكتاب الرائد الذي‮ ‬أصدره محمد بن الحسن الشيباني‮ ‬في‮ ‬القرن الثاني‮ ‬الهجري،‮ ‬بعنوان‮ (‬السِّيَر الكبير‮). ‬وهو الكتاب الذي‮ ‬يعدّ‮ ‬العمدة والمرجعَ‮ ‬التاريخيَّ‮ ‬الأساسَ‮ ‬في‮ ‬تاريخ الفكر السياسي‮ ‬العالمي‮ ‬في‮ ‬العلاقات الدولية‮. ‬وهو أول كتاب في‮ ‬القانون الدولي‮ ‬العام والخاص في‮ ‬العالم كله،‮ ‬مما‮ ‬يجعل مؤلفَه الشيباني‮ ‬رائدَ‮ ‬القانون الدولي‮ ‬بلا منازع‮. ‬وتقديراً‮ ‬لمكانة هذا العالم المسلم الرائد في‮ ‬هذا الحقل المعرفي،‮ ‬أنشئت في‮ ‬سنة‮ ‬1955 في‮ ‬غوتنجن بألمانيا جمعية دولية باسم‮ (‬جمعية الشيباني‮ ‬للقانون الدولي‮)‬،‮ ‬وانتخب لرئاستها آنذاك الفقيه القانوني‮ ‬المصري‮ ‬الدكتور عبد الحميد بدوي‮ ‬عميد كلية الحقوق الأسبق بجامعة القاهرة،‮ ‬والعضو الأسبق في‮ ‬محكمة العدل الدولية‮. ‬وتهدف هذه الجمعية إلى التعريف بالشيباني‮ ‬وإظهار آرائه ونشر مؤلفاته المتعلقة بأحكام القانون الدولي‮ ‬الإسلامي(5)‮.‬**

**وهكذا فقد سبق كتاب محمد بن الحسن الشيباني‮ ‬معاهدة‮ (‬وستفاليا‮) ‬الموقعة عام‮ ‬1648،‮ ‬التي‮ ‬أرست قواعد الدبلوماسية الدائمة والمقيمة،‮ ‬وأنشأت فكرة التوازن الدولي‮ ‬في‮ ‬أوروبا‮. ‬وتعززت هذه المعاهدة بانعقاد مؤتمر فيينا عام‮ ‬1815 الذي‮ ‬يعدّ‮ ‬مرحلة متميزة في‮ ‬تطور الدبلوماسية‮. ‬والذي‮ ‬وضع قواعد دولية جديدة‮. ‬كما سبق هذا العالم العربي‮ ‬المسلم بإنجازه العلمي‮ ‬الرائد،‮ ‬اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية الموقعة في‮ ‬18 أبريل‮ ‬1961،‮ ‬وهي‮ ‬من ثلاث وخمسين مادة تشمل القواعد الخاصة بالنظام الدبلوماسي‮ ‬من عصبة الأمم إلى الأمم المتحدة‮.‬**

**ــ فهل تختلف الدبلوماسية الإسلامية عن‮ ‬غيرها بوجه من الوجوه ؟‮.‬**

**الواقع أن الدبلوماسية الإسلامية لا تختلف من حيث القواعد والمبادئ والأصول والإطار العام عن أي‮ ‬دبلوماسية أخرى‮. ‬ولكنها دبلوماسية ذات خصوصيات تستمدّها من القيم والمفاهيم الإسلامية،‮ ‬ومن الأهداف الإنسانية السامية التي‮ ‬تتحرك في‮ ‬إطارها لخدمة قضايا الأمن والسلم،‮ ‬ولترسيخ قواعد الحوار والتعايش والتعاون بين الأمم والشعوب‮.‬**

**وفي‮ ‬هذا الاتجاه تسير الدبلوماسية الإسلامية من خلال العمل‮ ‬الإسلامي‮ ‬المشترك في‮ ‬إطار منظمة المؤتمر الإسلامي،‮ ‬ومن خلال التعاون‮ ‬الدولي‮ ‬في‮ ‬إطار الأمم المتحدة وما‮ ‬يتفرع عنها من منظمات دولية‮.‬**

**فالدبلوماسية‮ ‬الإسلامية إذن،‮ ‬تسير في‮ ‬خطين متوازيين‮ :‬**

**أولهما‮ ‬‮: ‬العمل الإسلامي‮ ‬المشترك‮.‬**

**ثانيهما‮ ‬‮: ‬التعـــاون الدولــي،‮ ‬سـواء على مستـوى العــــلاقـــات الثنائية،‮ ‬أو على مستوى العلاقات الدولية‮.‬**

**فلننظر في‮ ‬مفهوم العمل الإسلامي‮ ‬المشترك،‮ ‬ولنتعرف على أهدافه،‮ ‬حتى نكشف عن طبيعة الدبلوماسية الإسلامية ونعرّف بجهودها في‮ ‬خدمة قضايا الحوار والسلام‮.‬**

**لقد تأسست‮ ‬منظمة المؤتمر الإسلامي‮ ‬في‮ ‬الرباط،‮ ‬في‮ ‬الخامس والعشرين من شهر سبتمبر سنة‮ ‬1969م،‮ ‬بمناسبة المؤتمر الأول لقادة العالم الإسلامي‮ (‬مؤتمر القمة الإسلامي‮ ‬الأول‮) ‬الذي‮ ‬عقد في‮ ‬العاصمة المغربية،‮ ‬بدعوة كريمة من جلالة الملك الحسن الثاني،‮ ‬رحمه اللَّه،‮ ‬وبتأييد ومساندة من جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه اللَّه،‮ ‬على إثر الحريق الإجرامي‮ ‬الذي‮ ‬تعرّض له المسجد الأقصى المبارك،‮ ‬في‮ ‬الحادي‮ ‬والعشرين من شهر أغسطس‮ ‬1969م‮ ‬،‮ ‬على‮ ‬يد‮ ‬عناصر صهيونية‮. ‬لقد كانت هذه الجريمة البشعة انتهاكاً‮ ‬لشرف المسلمين وكرامتهم‮. ‬وكان لزاماً‮ ‬على قادتهم الردُّ‮ ‬على هذا التحدي‮ ‬السافر الذي‮ ‬تمثل في‮ ‬الاعتداء على المسجد الأقصى المبارك في‮ ‬القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين‮. ‬ولقد استطاع قادة العالم الإسلامي‮ ‬المجتمعون في‮ ‬الرباط،‮ ‬انطلاقاً‮ ‬من هذا العدوان الذي‮ ‬أثار استنكار وتنديد العالم بأسره،‮ ‬استخلاصَ‮ ‬القوة اللازمة لتجاوز خلافاتهم وتوحيد كلمتهم وتركيز دعائم هذا التجمع الدولي‮ ‬الواسع المتمثل في‮ ‬منظمة المؤتمر الإسلامي،‮ ‬التي‮ ‬عهدت إليه‮ (‬أي‮ ‬إلى التجمع الدولي‮ ‬الإسلامي‮ ‬الجديد‮) ‬مهمة رئيسَة،‮ ‬وهي‮ ‬تحرير‮ ‬القدس من الاحتلال الصهيوني‮.‬**

**بعد‮ ‬ستة أشهر من هذا الحدث التاريخي،‮ ‬أي‮ ‬خلال شهر مارس من سنة‮ ‬1970م‮ ‬،‮ ‬انعقد في‮ ‬جدة بالمملكة العربية السعودية،‮ ‬المؤتمر الإسلامي‮ ‬الأول لوزراء الخارجية الذي‮ ‬تم خلاله إنشاء الأمانة العامة للمنظمة،‮ ‬لتقوم بمهمة التنسيق بين الدول الأعضاء‮. ‬وقد عين هذا المؤتمر أمينا عاماً‮ ‬للمنظمة،‮ ‬وحدد مقرها في‮ ‬مدينة جدة في‮ ‬انتظار تحرير القدس المقر الدائم‮. ‬وبعد سنتين ونصف السنة من قمة الرباط،‮ ‬وفي‮ ‬شهر مارس من سنة‮ ‬1972م‮ ‬،‮ ‬صادق المؤتمر الإسلامي‮ ‬الثالث لوزراء الخارجية المنعقد في‮ ‬جدة على ميثاق المنظمة(6)‮.‬**

**القانون الدولي الإسلامي**

**بدأ الاهتمام بالعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم خارج الجزيرة العربية في المرحلة المكية ، عندما نصح الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بعض أصحابه من المسلمين الأوائل بالهجرة إلى الحبشة للتخلص من ظلم قريش لهم . وجاءت سورة الروم تتحدث عن حرب بين دولتين عظميين في المنطقة (الروم والفرس) ، وحدد القرآن الموقف الإسلامي من تلك الحرب التي انتصر فيها الفرس ، وبشر المسلمين بانتصار الروم بعد بضع سنين . وحالما استقرت دولة المدينة باشر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بإرسال رسائل إلى الدول الكبرى في المنطقة (بيزنطة وفارس ومصر واليمن والحبشة) يدعو زعماءها وشعوبها إلى الإسلام . وبعد ثمانين عاماً كانت الدولة الإسلامية أكبر امبراطورية في المنطقة تمتد من الهند شرقاً إلى إسبانيا غرباً . فأصبحت لها حدود مشتركة وطويلة مع العديد من الدول والشعوب غير المسلمة . وكانت علاقات الدولة الإسلامية (الأموية والعباسية) متوترة مع جميع جيرانها عدا الحبشة . وبسبب الحروب والمعارك كانت هناك حاجة ماسة لتنظيم فترات الهدنة والصلح والجزية وتبادل الأسرى وإقرار السلم .**

**بدأ الفقهاء المسلمون يتناولون قضايا القانون الدولي في كتب الفقه فيما يعرف بالسِّيَر (جمع سيرة) والتي يقصد بها طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين خارج (دار الإسلام) . وتتضمن لفظة السيرة معنيين ، الأول : والذي كان المؤرخون وأصحاب السير يستعملونه ، يعني قصة أو سيرة حياة الرجل . والثاني : وكان الفقهاء يستعملونه ويعني تصرف الدولة في علاقاتها مع الشعوب الأخرى****[[8]](http://us.share.geocities.com/f_bal3awi/30.htm?200922" \l "_ftn8#_ftn8" \o ")[1] . يقول السرخسي في شرحه الوافي لكتاب (السير الكبير للشيباني) : إعلم أن السير جمع سيرة ، وبه سمي هذا الكتاب لأنه يبين فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ومع المرتدين الذين هم أخبث من الكفار بالانكار بعد الإقرار ، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين وإن كانوا جاهلين وفي التأويل مبطلين****[[9]](http://us.share.geocities.com/f_bal3awi/30.htm?200922" \l "_ftn9#_ftn9" \o ")[2] .**

**ومن أوائل الفقهاء المسلمين الذين تناولوا قضايا السير هو محمد بن الحسن الشيباني الذي كتب مؤلفه (السّيَر الكبير) ، وعبد الرحمن الأوزاعي (توفي 157 هـ، 774 م) من الذين عالجوا السير كموضوع مستقل من مواضيع الفقه . وكان سفيان الثوري (توفي عام 161 هـ، 778 م) والشعبي (توفي عام 104 هـ، 723 م) شديدي الاهتمام بموضوع الحرب . ويبدو أن آراءهما كان لها تأثير في أبي حنيفة (توفي عام 150 هـ، 768 م) وفي نفوس تلاميذه من بعده وخاصة أبو يوسف والشيباني اللذين عالجا الموضوع بإسهاب . ولم يعر فقهاء الحجاز كمالك بن أنس (توفي عام 179 هـ، 796 م) أقل اهتمام لأنهم كانوا بعيدين عن المناطقالتي حصل فيها الاتصال المباشر بين الإسلام وبين شعوب أخرى ، فلم يبالوا كثيراً بالمشكلات التي كانت تنشأ نتيجة لهذا الاحتكاك بين المسلمين وبين الشعوب الأخرى****[[10]](http://us.share.geocities.com/f_bal3awi/30.htm?200922" \l "_ftn10#_ftn10" \o ")[3] . في حين كان فقهاء العراق من الحنفيين وفقهاء المغرب المالكيين على تماس مباشر مع الشعوب والدول غير الإسلامية .**

**وجرى تصنيف العالم إلى (دار الإسلام) و(دار الحرب) ، وهي تسميات لم ترد لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية ، بل مجرد مصطلحات ابتكرها الفقهاء للتمييز بين الأرض الإسلامية التي يسودها القانون الإسلامي والأراضي التي تعود لغير المسلمين وتسودها قوانين غير إسلامية . وكان الفقهاء القدامى يتناولون موضوع السير إما في باب الجهاد أو أبواب أخرى كالمغازي والغنائم والردة وعهد الأمان . ويشبه التقسيم الإسلامي من حيث المبدأ على الأقل ، ما قبله البلشفيك في روسيا ، فهذه البلاد هي الوطن العام لكل شيوعي و(دار السلام) للقائلين بهذه الأيديولوجيا ، وما بقي من العالم حيث يسود أصحاب الأموال فهي (دار حرب) يتعين فيها على كل ثائر شيوعي أن يتخذ جميع الوسائل ، هو وحزبه ، للإستيلاء على مقاليد السلطة فيها****[[11]](http://us.share.geocities.com/f_bal3awi/30.htm?200922" \l "_ftn11#_ftn11" \o ")[4] .**

**وقد تناول أبو حنيفة وتلامذته بعض المفاهيم ذات الصلة بالقانون الدولي مثل مبدأ المعاملة بالمثل أي معاملة غير المسلمين الداخلين إلى دار الإسلام كما يعامل المسلمون في دار الحرب . كما ينطبق هذا المبدأ أيضاً على التمثيل الدبلوماسي رغم أن حصانة الممثل الدبلوماسي كان عرفاً متبعاً في التمثيل الدبلوماسي . ويطبق أيضاً في تبادل الأسرى وفي دفع الفدية . وكانوا يعتبرون المسلمين وغير المسلمين شخصيتين لكل منهما وضعها القانوني سواء كانوا أفراداً أو جماعات . وكان لانفصال الأقاليم آثار قانونية تمس علاقات المسلمين مع غيرهم من الشعوب . وهكذا نجد أن أبا حنيفة ، في الوقت الذي كانت فيه الشريعة الإسلامية ملزمة لكل مسلم في أي إقليم يقيم فيه ، يدخل فكرة الإقليمية في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين . وعليه صار استنباط الأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الموضوع يستند إلى العرف والقياس وإلى الإقليمية أو (الدار) بالاصطلاح الإسلامي . وقد اختلف فقهاء آخرون كالأوزاعي مع أبي حنيفة حول فكرة الإقليمية .**

**وينشأ عن هذا المبدأ الأساسي قضية أخرى وهي أنه على المسلمين أن يعترفوا بأحكام البلدان غير الإسلامية وقوانينها على أنها ملزمة للمسلمين عندما يكونون مقيمين في دار الحرب . وكان أبو حنيفة يعتبر أعمال الأفراد المسلمين المقيمين في دار الحرب التي تخالف قوانين البلاد أعمال سرقة وقطع سبيل .**

**وإذا كان الغرب يعتبر العالم والسياسي الهولندي هوجو دي غروت  HugoDE Groot الذي عاش في القرن السابع عشر هو أبو القانون الدولي فإن بعض الباحثين الغربيين يعتبرون الشيباني (دي غروت الإسلام) . وقد اعترف هانس روزه (إن إحلال الشيباني محلاً رفيعاً في تاريخ القانون الدولي محلاً يستحقه بجدارة) ، فأسس عام 1955 (جمعية الشيباني للقانون الدولي)****[[12]](http://us.share.geocities.com/f_bal3awi/30.htm?200922" \l "_ftn12#_ftn12" \o ")[5].**

**الإمام الأوزاعي

نَسَبُهُ وَقَبِيلَتُهُ:

هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأَوْزَاعِيّ، قال محمد بن سعد: والأوزاع بطن من همدان، وقال البخاري في تاريخه: الأوزاع: قرية بدمشق إذا خرجت من باب الفراديس.

مَولِدُهُ:

88 هـ، 707 م

البَلدُ التي وُلدَ فِيهَا:

ولد في ( بَعْلَبَكّ ) وهي إحدى المدن اللبنانية وتقع على بعد 85 كم إلى الشرق من بيروت فوق أعلى مرتفعات سهل البقاع...

البَلدُ التي عَاشَ فِيهَا:

نشأ في البقاع، وسكن بيروت.

طُفُولَتُهُ وتَربِيَتُهُ:

قال ابن كثير: نشأ - أي الأَوْزَاعِيّ - بالبقاع يتيما في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم، ولا أكثر صمتا منه....

أَهَمُّ مَلَامِحِ شَخْصِيَتِهِ:

كَثْرَةُ عِلْمِهِ وَفِقْهِِهِ:

يُعّدُّ الإمِامُ الأَوْزَاعِيّ أحد الفُقَهَاءِ الأعلام الذين أثّرُوا في مَسِيرةِ الفِقْهِ الإِسْلَامِيِّ خَاصَّةً في بلادِ الشَّامِ والأَندلُسِ....

قال الحافظ ابن كثير: وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحوًا من مائتين وعشرين سنة...

ثم انتقل مذهبه إلى الأندلس وانتشر هناك فترة، ثم ضعف أمره في الشام أمام مذهب الإمام الشافعي، وضعف في الأندلس أيضًا أمام مذهب الإمام مالك الذي وجد أنصارًا وتلاميذ في الأندلس، بينما لم يجد مذهب الأَوْزَاعِيّ الأنصار والتلاميذ...

وقال ابن كثير عن الأَوْزَاعِيّ أيضًا: ما تكلم بكلمةٍ إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه - من حسنها -، وكان يعاني الرسائل والكتابة، وقد اكتتب مرة في بعث إلى اليمامة فسمع من يحيى بن أبي كثير وانقطع إليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة ليسمع من الحسن وابن سيرين.

فسار إليها فوجد الحسن قد توفي من شهرين ووجد ابن سيرين مريضا، فجعل يتردد لعيادته، فقوي المرض به ومات ولم يسمع منه الأَوْزَاعِيّ شيئًا.

ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الاوزاع خارج باب الفراديس، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الاسلام.

وقد أدرك خلقا من التابعين وغيرهم، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس والثوري والزهري، وهو من شيوخه.

وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: أفسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه.

وقد تذاكر مالك والأَوْزَاعِيّ مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأَوْزَاعِيّ في المغازي، وغمره مالك في الفقه أو في شئ من الفقه.

وتناظر الأَوْزَاعِيّ والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه.

فاحتج الأَوْزَاعِيّ على الرفع في ذلك بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في الركوع والرفع منه".

واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد، فغضب الأَوْزَاعِيّ وقال: تعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف؟ فاحمرّ وجه الثوري، فقال الأَوْزَاعِيّ: لعلك كرهت ما قلت؟ قال: نعم.

قال: فقم بنا حتى نلتعن عند الركن أينا على الحق، فسكت الثوري.

وقال ابن زياد: أفتى الأَوْزَاعِيّ في سبعين ألف مسألة بحدثنا.

وقال أبو زرعة: رُوي عنه ستون ألف مسألة.

وقال غيرهما: أفتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله زاكٍ.

وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأَوْزَاعِيّ والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأَوْزَاعِيّ.

وقال عنه ابن حبان في كتابه مشاهير علماء الأمصار: أحد أئمة الدنيا فقهًا وعلمًا وورعًا وحفظًا وفضلًا وعبادةً وضبطًا مع زهادةٍ...

عِبَادَتِهِ وَوَرِعِهِ وَزُهْدِهِ:

قال بشر بن المنذر: كان الأَوْزَاعِيّ كأنه أعمى من الخشوع، وقال ابن مسهر: كان يُحيي الليل صلاة وقرآناً...

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحدا أشدّ اجتهادا من الأَوْزَاعِيّ في العبادة.

وقال غيره: حجّ فما نام على الراحلة، إنما هو في صلاة، فإذا نعس استند إلى القتب، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى.

ودخلت امرأة على امرأة الأَوْزَاعِيّ فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولا فقالت لها: لعل الصلبي بال ههنا.

فقالت: هذا أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده، هكذا يصبح كل يوم.

شُيُوخه:

روى عن عطاء بن أبي رباح، والقاسم ابن مخيمرة، ومحمد بن سيرين حكاية، والزهري، ومحمد بن علي الباقر، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وقتادة، وعمرو بن شعيب، وربيعة بن يزيد، وشداد، وأبي عمار، وعبدة ابن أبي لبابة، وبلال بن سعد، ومحمد بن إبراهيم التيمي، ويحيى بن أبي كثير، وعبد الله بن عامر اليحصبي، ومكحول، وأبي كثير السحيمي وخلق...

مُؤَلَفَاتِهِ:

1 - كتاب السنن في الفقه.

2 - كتاب المسائل في الفقه.

3 - كتاب السير.

4 - كتاب المسند.

ثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ:

قال عنه أبو نعيم في الحلية: الإمام المبجل، والمقدام المفضل، عبد الرحمن بن عمرو أبو عمرو الأَوْزَاعِيّ، رضي الله تعالى عنه. كان واحد زمانه، وإمام عصره وأوانه، كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم، مقوالاً بالحق لا يخاف سطوة العظائم.

وقال عنه الحافظ ابن كثير: الإمام الجليل علامة الوقت... فقيه أهل الشام وإمامهم.

وقال عنه الإمام مالك: كان الأَوْزَاعِيّ إماما يقتدى به.

وقال عنه الذهبي: كان رأساً في العلم والعمل، جم المناقب. ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسل.

وقال إسماعيل بن عياش: سمعتُ الناس سنة أربعين ومائة يقولون: الأوزاعي اليوم عالم الأمة.

وقال عبد الله الخريبي: كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه.

وقال سفيان بن عيينة وغيره: كان الأَوْزَاعِيّ إمام أهل زمانه...

وقال محمد بن عجلان: لم أر أحدا أنصح للمسلمين من الأَوْزَاعِيّ.

وقال عنه الصفدي: إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم...وكان ثقة مأموناً فاضلاً خيراً كثير العلم والحديث والفقه حجّة.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأَوْزَاعِيّ.

وقال أبو حاتم: كان - أي الأَوْزَاعِيّ - ثقةً متبعًا لما سمع.

وقال عنه الزركلي صاحب الأعلام: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتّاب المترسلين.

الأَوْزَاعِيُّ عَالِمٌ رَبَانِّيّ لَا يَخْشَى فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ:

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:

ولما دخل عبد الله بن علي - عم السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده - دمشق فطلب الأَوْزَاعِيّ فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه.

قال الأَوْزَاعِيّ:

دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسودة عن يمينه وشماله، ومعهم السيوف مصلتة - والعمد الحديد - فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهادا ورباطا هو؟ قال: فقلت: أيها الامير سمعت يحيى بن سعيد الانصاري يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ".

قال: فنكت بالخيزرانة أشد مما كانت ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة ".

فنكت بها أشد من ذلك ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضا، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك، وإني أحب أن يتم ما ابتدؤني به من الاحسان.

فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إن ورائي حرما وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي.

قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف.

فلما خرجت إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الامير: استنفق هذه.

قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفا.

مِنْ كَلِمَاتِهِ الخَالِدَةِ:

- عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وقول الرجال وإن زخرفوه وحسنوه، فإن الامر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم.

- اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم.

- العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم.

- لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلب مؤمن.

- إذا أراد الله بقوم شرًا فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل.

العافية عشرة أجزاء، تسعة منها صمت، وجزء منها الهرب من الناس.

وَفَاتُهُ:

قال أبو بكر بن أبي خيثمة: حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: كنت جالسا عند الثوري فجاءه رجل فقال: رأيت كأن ريحانة من الغرب - يعني قلعت - قال: إن صدقت رؤياك فقد مات الأَوْزَاعِيّ، فكتبوا ذلك فجاء موت الأَوْزَاعِيّ في ذلك اليوم.

وقال أبو مسهر: بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه، ولم تكن عامدة ذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة.

قال: وما خلف ذهبا ولا فضة ولا عقارا، ولا متاعا إلا ستة وثمانين فضلت من عطائه.

وكانت وفاته في بيروت يوم الأحد 28 صفر سنة 157 هـ، 16 يناير 774 م، وهو دون السبعين بسنة واحدة، ورثاه بعضهم بقوله:

جاد الحيا بالشام كل عشيةٍ... قبراً تضمن لحده الأَوْزَاعِيّ

قبرٌ تضمن فيه طود شريعةٍ... سقيا له من عالمٍ نفاع

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

من مراجع البحث:

البداية والنهاية................................ ابن كثير

الفهرست.................................... ابن النديم

حلية الأولياء.................................. أبو نعيم

وفيات الأعيان................................ ابن خلّكان

العبر في خبر من غبر........................... الذهبي**

# السفارة الإسلامية وبناء الجسور الحضارية بين الأمم

#### مسفر بن علي القحطاني     الحياة     - 18/04/09//

**تاريخ السفارة في الإسلام بدأ مع بداية الدعوة النبوية، وما رافقها من حاجة التواصل مع القبائل أو الشعوب أو الدول المحيطة بالدولة المدنية التي أنشأها النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد الهجرة، ومع أن للرسل والسفراء قديماً حصانة من الاعتداءات على أشخاصهم و رسالاتهم، فقد حافظ النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذا التشريع الدولي على رغم الخروقات العديدة التي مارسها عدد من الحكّام في وقته ؛ مثل ما فعل ملك الفرس خسرو حينما قطّع الخطاب الذي أرسله إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وداسه بأقدامه، وكذا فعل أمير الغساسنة مع رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الموفد إليه.**

**وفي مقابل هذه المعاملة الوحشية والسلوك المشين أكرم النبي (صلى الله عليه وسلم) مبعوث المقوقس عظيم القبط وقبل هداياه، وأكرم رسول هرقل. وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في بعض الرسل فدخلوا في الإسلام لما يرونه من حُسن المعاملة وكرم الوفادة.**

**فقد روي عن أبي رافع مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «بعثتني قريش إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أُلقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إني لا أخيس بالعهد أي لا أنقض العهد، ولا أحبس البرود أي الرسل، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع». قال الإمام الشوكاني: معنى هذا الحديث دليل على أنه يجب الوفاء بالعهد للكفار كما يجب للمسلمين، لأن الرسالة تقتضي جواباً يصل على يد الرسل فكان ذلك بمنزلة عقد العهد، وحتى لا يؤول بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حبس الرسول أو أن إسلام رسول قريش كان خوفاً على حياته.**

**وقد قرر الإمام السرخسي هذه القاعدة الدولية في قوله: «الرسل والمبعوثون لم تزل آمنة في الجاهلية والإسلام وهذا لأن أمر القتال والصلح لا يتم إلا بالرسل فلا بد من أمان الرسل لتوصل إلى ما هو المقصود». فتأمين الرسل ثابت في الشريعة الإسلامية ثبوتاً معلوماً.**

**هذا في مجال أمن السفراء والرسل، أما في مجال نوعية اختيار السفراء فكان دقيقاً وملحوظاً فيه طبيعة المقابل ومدى تأثره النفسي بشخصية السفير وانعكاس ذلك على رأيه بصاحب الرسالة وأهدافه. وقد ظهرت حكمة النبي (صلى الله عليه وسلم) في تطبيق هذا المفهوم من خلال صور عدة، منها تعامله مع سفراء قريش في صلح الحديبية وتعاملهم مع سفيره عثمان بن عفان وفهمهم لمراد النبي (صلى الله عليه وسلم) من الصلح، وإرساله دحية الكلبي إلى قيصر كمبعوث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد اختاره عليه الصلاة والسلام لجماله الشديد وحسن بيانه، ولا شك في أن هذا الاختيار له دلالاته التأثيرية على المقابل من الملوك والعظماء.**

**وقد سار على هذا النهج الجليل جملة من الملوك والخلفاء، فقد اختار الخليفة عبدالملك بن مروان القاضي عامر بن شرحبيل الشعبي رسولاً إلى ملك الروم، وكان أية في الفهم والذكاء والعلم، حتى حسد ملك الروم العرب عليه وحاول إغراء عبد الملك بقتله . كما اختار عضد الدولة القاضي أبو بكر الباقلاني رسولاً إلى ملك الروم، وكان من كبار علماء الكلام والفقه والأصول، وقد استطاع في محادثاته مع الملك أن يفحمه في جدالهم حول عيسى ومريم. واختار الفاطميون القاضي محمد بن سلامة القضاعي سفيراً إلى ملك البيزنطية. وأرسل الخليفة وزيره هشام بن الهذيل إلى ملك الروم. فالسفير في التأريخ الإسلامي صورة عاكسة لحال الأمة وقوتها ومقدار ما تملكه من معارف وعلوم، لا تظهر إلا في شخص السفير ومدى تمكّنه العلمي وقدراته الذاتية في الردّ وسرعة الجواب وحسن المنطق.**

**والسفارات بين الدول في العصر الحديث لا تختلف عما سبق تأسيسه من قبل، فالبعثات الديبلوماسية هي وسائط المعرفة وأبواب السلم أو الحرب، وأعضاؤها مرآة بلادهم والصورة المنقولة عن حضاراتهم، والمجتمعات دائماً تتفحص وتقرأ وضع السفارات كمدخل للأوطان التي ترغب في التعرف إليها.**

**وفي عصر العولمة والتواصل والتداخل الثقافي، زادت مهمات السفير عما سبق وتعاظم دوره في المجتمع الذي يُبعث إليه، فهو الناطق السياسي والوعاء الثقافي والرسول المجتمعي حتى لو كانت لحكومته أغراض أخرى غير تلك المقاصد في عمله. وبنظرة واقعية الى الدور الذي تلعبه بعض سفارات الدول العربية والإسلامية في المجتمعات غير المسلمة، يظهر للعيان صورة سلبية من الانكفاء وعدم التأثير سوى تلك المناسبات السنوية التي تتطلبها الأعراف الديبلوماسية، كالأيام الوطنية وتوديع السفراء واستقبال الوزراء وتوصيل الرسائل وحضور الأفراح والمآتم، والقليل الذي يتجاوز دوره نحو التواصل مع الإعلام وتغير الصورة النمطية عن بلاده، أو التأثير في النخب المثقفة والسياسية وتحويلهم في صف الدفاع أو الحلفاء مع قضايانا العربية والإسلامية.**

**وبالتالي تصبح شخصية السفير أكبر من ممارس للعمل الإداري أو الأمني إلى شخصية تستقطب وتؤثر وتصنع فكراً وتحاور بمهارات الديبلوماسي المثقف.**

**وكم يتعجب الزائر لكثير من دول العالم خصوصاً الدول السياحية منها أن يجد كتب التعريف والإرشاد السياحي قد كُتبت بأشهر لغات العالم باستثناء العربية، مع أن أكثر زوارها والمترددين عليها هم من العرب، في حين نجد اللغة العبرية قد اتخذت موقعاً متميزاً بين اللغات الحية وهي التي لا ينطق بها سوى بضعة ملايين في العالم كله.**

**ولهذا أجد أن من الضروري أن تقوم السفارات العربية خصوصاً في الدول الغربية بالدعوة والتعريف باللغة العربية وفنونها الأدبية، وبناء جسور حضارية للتواصل مع ثقافاتنا العربية والإسلامية، ولا أظن أننا نستطيع العبور نحو هذه الجسور إلا من خلال بوابة السفارات المفتوحة للعلوم والمعارف والحضارات المتنوعة.**

1. () انظر: زاد المعاد 1/30 [↑](#footnote-ref-1)
2. () انظر: أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية ، ص200. [↑](#footnote-ref-2)
3. () سنن أبي داود (2758) . [↑](#footnote-ref-3)
4. () انظر: نيل الأوطار 8/30. [↑](#footnote-ref-4)
5. () انظر: المبسوط 10/92. [↑](#footnote-ref-5)